الأسلاف من علماء ليبيا وجهودهم في هُوية الصواب الفكري والإصلاح القلبي

د: حسن الصادق المرخي/جامعة صبراتة/ كلية التربية

المقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه الكرام.

أما بعد:

فما يُميز منهج الأسلاف وجهود ما ترسخ على أيديهم في المجتمع الليبي عبر مراحله التاريخية وتطوره، أنه حافظ على روح التوازن بين البعد التربوي والاجتهاد الفقهي، وقد كان هذان البعدان سمة الاقتران فيما بينهما، من بدايات نشأة المدرسة المالكية، مما أنتج كمالاً وتوازناً في هوية المجتمع الليبي بين أفراده وجماعاته، وفهما صحيحا لجوهر ولُبّ وسطية الشرع الإسلامي، وتيسير الأخذ به في تطبيقاته، مما عكس ذلك سلوكا مثاليا طيلة الفترة التي كانت المؤسسات العلمية وروابطها وزواياها عامرة بهذا المنهج المتزن والمتكامل ، فلم يسجل التاريخ الليبي في فترة حياة هذه المنهجية العلمية أي نتاج متطرف أو فكر منحرف، يحمل صُوراً فكرية مشوهة أو مشبوهة، وقد تحققت هوية هذا الاعتدال بمنهجية الاقتران بين تزكية النفوس، والجانب الفقهي، فهذان الطريقان بوجودهما معا يحققان المصلحة الكبرى في إيجاد ما تتهيأ به النفوس بما يصلحها، ويصقل القلوب بما يطهرها؛ ليكون أصحابها على استعداد فطري سليم يحصن الفكر والعقل من كل التفسيرات الشاذة، والانحرافات المتطرفة التي أعيت المجتمعات في هذا العصر بما يحمل أصحابها من رعونات في النفوس، وقساوةٍ في القلوب، وعصبية في الطباع، فظهرت تطبيقاتهم الدينية وتأويلاتهم الفكرية في غاية من التطرف والتشدد والتّزمت، لا يعرفون لمنهج الاجتهاد وقواعد اختلافه أي اعتبار، فضاق نطاق فكرهم بألا يستوعبوا سماحة الدين ومساحة سعة رقعته الاجتهادية والعمل بمقاصده الشرعية إلى أن وصلوا بنطاقهم الضيق حد التكفير والتفجير لمن خالفهم ولم ينجر وراء انحدارهم التعصبي.

ومن خلال أهمية ما سبق تتجلى أهداف هذه الدراسة في الآتي ذكره:

1. إحياء مُدَارسة منهجية سلف ورموز وعلماء هذه البلاد، وجهودهم فيما شيدوه من أسسٍ وأبنيةٍ وقبابٍ لروابط وزوايا احتوت على أجل ما تركوه من تراث علمي منتفع به عَمَرَت به البلاد، وصلح به العباد في ليبيا.

2. ابراز دور الشواهد العلمية والمنارات الإيمانية ذات الطابع المعتدل والمتزن في ترسيخ التعاليم التي تحمل بعداً تربوياً ومنهجاً فقهياً في المجتمع الليبي، وتعالج نوازل الحياة، والنفوس من زيغ الأهواء.
3. معالجة كيفية تجنب الفوضى الفكرية والانحرافات السلوكية التي خرجت تحت مظلة دعوى الالتزام والتدين، التي ناقضت الهوية العلمية المترسخة في المجتمع الليبي.

إشكالية البحث:

قد جاء هذا البحث في طرح محاوره الإجابة على عدة تساؤلات وإشكاليات تتمثل في الآتي:

أولا- ما مدى أهمية المنهج التربوي والإصلاحي بجانب المنهج العلمي والفكري لدى المذهب المالكي؟

ثانيا- ما انعكاس ذلك على مؤسسه وأتباعه؟ وما الجهود العملية التي تحققت على أيديهم وتطبيقاتهم، وأثره ذلك في المجتمع الليبي وكيفية تكونه؟

خطة البحث:

تكونت خطة هذه الدراسة من أربعة محاور وتحتها عناوين فرعية وهي كالآتي:

المحور الأول: أهمية الجمع بين الفكر الفقهي والإصلاح القلبي لدى المذهب المالكي

أولا: تكوين المنهج الإصلاحي والفكر الفقهي في المذهب.

ثانيا: خطورة الفكر عند فقدان الإصلاح القلبي.

ثالثا: الإمام مالك وجهود تلامذته في ترسيخ قواعد تزكية النفوس.

المحور الثاني: الأسلاف المالكيون في ليبيا وجهودهم في تكوين هوية الصواب الفكري والإصلاح القلبي

أولا- المفهوم المتزن للزهد عند علماء الإصلاح من الأسلاف.

ثانيا- المجتمع الليبي وتأثره الإصلاحي بالهوية المدنية

المحور الثالث: الأسلاف ومنهجيتهم التطبيقية والتدريسية في إرشاد الفكر وإصلاح القلب

أولا: الفكر الإصلاحي للشيخ زروق ومنهجيته التعليمية.

ثانيا: الفكر الإصلاحي للشيخ الأسمر وتطبيقاته التدريسية.

المحور الرابع: المجتمع الليبي وتأثره بمنهجية الصواب الفكري والإصلاح القلبي

أولا: عبر النسيج العمراني القديم.

ثانيا: عبر مظاهر حياة التدين والالتزام بين طبقات الخواص.

ثالثا: عبر مظاهر الحياة الاجتماعية بين عامة الناس.

المحور الأول: أهمية الجمع بين الفكر الفقهي والإصلاح القلبي لدى المذهب المالكي

أولا: تكوين المنهج الإصلاحي والفكر الفقهي في المذهب

نجد لهذا التأسيس في التوأمة بين الطريقين من بدايات نشأة المدرسة المالكية له وجوده وأهميته في حياة الإمام مالك من حين مرحلته التعليمية الأولى، حيث يذكر الإمام مالك أن أول نواة تربوية ابتدأها في طريق التعلم من جهة أمه لما وجهته إلى أبرز مشايخ المدينة في زمنه حيث يقول: "قلت لأمي أذهب فأكتب العلم؟ " فقالت "تعال فالبس ثياب العلم". فألبستني ثياباً مشمرة ووضعت الطويلة على رأسي وعممتني فوقها. ثم قالت: "اذهب فاكتب الآن". وقال -رحمه الله-: "كانت أمي تعممني وتقول لي: اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه[1].

وهنا تبرز معرفة الأم وعلمها بأهمية هذه التوأمة بين الفقه والأدب، وهو ما يمثل الصلاح القلبي، وذلك مبني على طبيعة البيئة المدنية التي ترسخ في عامها وخاصها هذا الامتزاج ،لأنها البيئة التي ورثت علم رسول الله ﷺ بتمامه مقترنا بكمال أخلاقه وصفاته، والذي يعتبر هذا الكمال الخلقي منبع ومظهر لصلاح القلوب، واستقامة السلوك بتعلم الأدب النبوي الذين كان لهم أعظم نصيب، وهذه هي الهوية الحقيقية للدين التي تربى عليها الصحابة ومن بعدهم من التابعين وتابعيهم، ولما كان عهد الإمام مالك قريب بزمن النبوة وحياته الدائمة في رحاب المدينة المنَّورة جعلته يستشعر شخصيَّة النبي ﷺ ويستحضره وكأنه ماثل أمام عينيه في غُدُوّه ورواحه وحضره وسفره، يتلمس آثار خطواته، وأنوار ممشاه فانصبغ ذلك في كل تلامذته وأتباعه، وصار لهم منهجا رصينا.

---

1 - ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض بن موسى اليحصبي (130/1) ن: مطبعة فضالة - المحمدية، المغرب، ط: الأولى.

ثانيا: خطورة الفكر عند فقدان الإصلاح القلبي:

وبهذا التوازن لم يحصل تطرف في الفكر، أو انحراف في السلوك كما وُجد في بقيّة المجتمعات الأخرى من فرق عديدة ظهرت في غير المدينة المنورة، ضلت في فكرها وانحرفت في سلوكها وأكبر مثال على ذلك ظهور فئة الخوارج الذين يُعرفون بكثرة علمهم وعملهم، ولكن فقدوا عنصر الأدب والاستقامة السلوكية القائم على حسن الظن، فقد أساؤوا ظنهم في حق أفضل من صحب رسول الله ﷺ وأباحوا دماءهم، ونتج عن ذلك من انحراف الفكر بأنهم جعلوا قتل خيار الصحابة وسيلة من وسائل القربى إلى الله في معتقدهم، ولعل العاقل يستغرب صدور مثل هذا السلوك الذي يحمل أصحابه على التجرؤ بقتل أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ كمثل الخليفة الرابع على بن ابي طالب رضي الله عنه الذي قتلته الخوارج في ظنهم بأنهم أدوا أفضل قربى الى الله بقتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ولكن هذا الاستغراب والتعجب يزول سببه عندما نتكشف أسبابه وهو خطورة التفريق بين أهمية صواب الفكر القائم على صلاح القلب وبين الأدب النفوس وتطهيرها من الرعونات، وقد أشار النبي ﷺ إلى شدة هذه الخطورة، وشرها بحيث لا يغتر المرء بكثرة عمل ولا علم ما لم يستقم القلب أو تصلح النفس وتتطهر من الصفات المذمومة حتى يتولد الفهم الصحيح والفكر السليم حول نصوص الوحي ومسائله العلمية، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِالْجِعْرَانَةِ مُنْصَرَفَهُ مِنْ حُنَيْنٍ وَفِي ثَوْبِ بِلاَلٍ فِضَّةٌ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْبِضُ مِنْهَا يُعْطِي النَّاسَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ اعْدِلْ. قَالَ: " وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ لَقَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ " . فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَقْتُلَ هَذَا الْمُنَافِقَ . فَقَالَ " مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابَهُ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْهُ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ"[1] وفي رواية " دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاَتَهُ مَعَ صَلاَتِهِ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ"[2] وفي رواية أخرى " "سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي اخْتِلَافٌ وَفُرْقَةٌ قَوْمٌ يُحْسِنُونَ الْقِيلَ وَيُسِيئُونَ الْفِعْلَ"[3].

1 - صحيح البخاري رقم (3610) المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط: الأولى 1422هـ

2 - السنن الكبى للنسائي رقم (11156)، ن: مؤسسة الرسالة – بيروت، ط: الأولى، 1421 هـ - 2001م

3 - سنن أبي داود رقم (4765) تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ن: دار الفكر

ففي الرواية الأولى تصور لنا كيف تجرأ الرجل الذي سأل النبي ﷺ بإساءة الأدب وسوء ظنه في رسول الله ﷺ، وتهمته بأنه لا يعدل في القسمة، وما ذلك إلا لانحراف الفكر، لعدم الاستقامة القلبية والطهارة النفسية، فقد انخلع عن أدبه مع النبيﷺ وانطمست بصيرته مع أنه كان هذا الرجل متمسكا بظاهر تعاليم الاسلام عالما بأحكامه، ولكن لم يُجْد عنه شيئا، لفقدان الأدب، ولما كان في ظاهره عاملا بالتكاليف الشرعية لم يترك النبيﷺ عمر يقتله عندما همَّ بذلك.

وفي الرواية الثانية يبين كيف يكونون أمثال هذا الرجل على كثرة من عمل الجوارح دون أن يكون لها أثر قلبي، وصلاح سلوكي، وقد بيّن ﷺ أن السبب أنحجاب قلوبهم عن الفائدة القرآنية أنهم: يقرؤون القران " أي يداومون على تلاوته ويبالغون في تجويده وترتيله ومراعاة مخارج حروفه وصفاته[1] ((فلا يجاوز حناجرهم))، يريد أنه لا يتخلص عن ألسنتهم وآذانهم إلى قلوبهم وأفهامهم، وقال القاضي عياض: لا تتجاوز قراءتهم عن السنتهم إلى قلوبهم فلا تؤثر فيها"[2] لأنهم لم يهتموا بشأنها ولم يجعلوا من القران حضا من تنوير بواطنهم، وانما الغاية تزيين أصواتهم به فينتج عن ذلك ما جاء في الرواية الثالثة في وصفهم"(يحسنون القيل ويسيئون الفعل) فلما لم يقع الانتفاع الباطني في ملامسة القلوب من الذوق القرآني ما تلتزم به النفوس بالأدب وقع منهم الانحراف الفكري الخطير إلى درجة شبهه النبي ﷺ بالمروق كمروق السهم من الرمية (يمرقون منه -أي الدين- كما يمرق السهم من الرمية) "أي يمرون عليه سريعا من غير حظ أو انتفاع به"[3]

ثالثا: الإمام مالك وجهود تلامذته في ترسيخ قواعد تزكية النفوس:

ومن هنا اهتم أسلاف المدرسة المالكية بل وحرصوا كل الحرص بالسير على ما كان عليه الإمام مالك في أول نشأته بأن قرن دراسة العلوم الشرعية بتعلم قواعد تزكية النفوس وصلاح القلوب وتصفيتها من الشوائب والكدورات حتى أُثر عن الإمام مالك مقالته المشهورة التي أوضح فيها معالم التوازن ما بين هذين السبيلين بحيث لو فُصل أحدهما

1 - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للإمام محمد التبريزي (3797/9) ن: دار الفكر، بيروت – لبنان ط: الأولى، 1422هـ - 2002م.

2 - المصدر السابق.

3 - المصدر السابق.

عن الاخر في مراحل التعليم لطلاب العلم ورواده لحدث خلل وانحراف عظيم فقال: "من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق"، ومن جمع بينهما فقد تحقق"[1]، وليس التصوف الذي ذكره الامام مالك في مقصوده منه إلا الأدب وتعلم الخلق فقد جاء في تعريفه بأن «التصوف خلق وأدب فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف»[2] ، وقال العارف بالله شيخ الجنيد سيدي أبو حفص الحداد -رضي الله عنه-: "التصوف كله آداب، لكل وقت آداب ولكل محل آداب"[3]، وعَن سهل بْن عَبْد اللهِ أَنَّهُ قَالَ : "من قهر نَفْسه بالأدب فَهُوَ يعبد اللَّه تَعَالَى بالإخلاص"[4]

لقد ربطت هذه المدرسة بين الفقه والأدب لأنّ القرآن الكريم قد قرن بينهما وجعل سبحانه وتعالى مهمَّة الأنبياء ودورهم يتلخص فيهما استجابة من الله لدعاء سيدنا إبراهيم – عليه السلام – حين ناجى ربَّه قائلاً: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾[5].

ومرة أخرى يجمع القرآن بين التزكية والعلم مذكراً الأمة بهذه النعمة العظيمة فيقول تعالى ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[6].

ونجد لتلامذة الإمام مالك الأثر الجلي في تأثرهم البالغ بشخصيته التي نشأت على الاستقامة في الصواب الفكري والصلاح القلبي.. ومن بين أبرز تلامذة الإمام مالك الشافعي حيث يثبت هذا في بيتين من شعره توضح الهوية الحقيقية لسلوك طريق العلم من غير انحراف فيقول[7]:

1 - نقله عنه (التتائي في شرحه على مقدمه ابن رشد).

2 - البحر المديد لابن عجيبة (24/5) المحقق: أحمد عبد الله القرشي رسلان الناشر: الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة ط: 1419هـ

3 - شرح علي ملا قاري على آداب المريدين للسهروردي ص: 117، ن دار الكتب العلمية بيروت –لبنان.

4 - الرسالة القشيرية لعبد الكريم بن هوازن القشيري تحقيق: الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف ن: دار المعارف، القاهرة مصر.

5 - سورة البقرة، من الآية:129.

6 - سورة الجمعة، الآية:60.

7 - ديوان الشافعي الجوهر النفيس في شعر الإمام محمد بن إدريس ص :46 تحقيق محمد إبراهيم سليم، ن مكتبة ابن سينا – القاهرة مصر.

فَقيهاً وَصوفِياً فَكُن لَيسَ واحِداً فَـإِنّي وَحَـقُ اللهِ إيّـــاكَ أَنصَحُ

فَذَلِكَ قَـاسٍ لَم يَذُق قَلبُهُ تُقىً وَهَذا جَهولٌ كَيفَ ذو الجَهلِ يَصلُحُ

يشخص الشافعي في شعره خطورة الانفراد بأحد الطريقين، وتتمثل الخطورة في الآتي:

أولا: في تعلم الفقه ومسائله دون الاهتمام بترويض النفس بالآداب والأخلاق النبوية مما ينتج عن ذلك فقيها يحكم على الناس بقساوة قلبه، وعماوة بصيرته أحكاما جائرة وقاسية دون أن يلتفت إلى ما فيه من عيوب ظنا في نفسه أنه على الاستقامة دونهم، وربما قادته هذه العماوة إلى اتهام وسوء ظن بمن شُهد له بالخير والورع كمثال الرجل الذي اتهم ﷺ بعدم العدل، وكما اتهمت الخوارج علي بن أبي طالب رضي الله عنه بأنه لم يحكم بحكم الله.

ثانيا: فيمن سلك مسلك التخلق والآداب والتنسك دون علم ومعرفة بالأحكام وفقه بمسائلها فإنه يقع في كثير من الجهالات والضلالات لغياب علمه بالأحكام، وربما ابتدع سبلا تخالف الأصول الشرعية، فالنجاة والصلاح والكمال تكمن في التوأمة بين الطريقين، وهذا المنهج الذي استفاده الشافعي من شيخه الإمام مالك والذي يعتبر هوية المجتمع المدني.

وها هو أيضا الإمام عبد الرحمن بن القاسم يلازم الإمام مالكا عشرين سنة معايشةً ومرافقة يجني من أدبه، ويقتبس من سمته وهيبته ووقاره ويُرَوِّضُ نفسه عليها ... وعندما عاد ابن القاسم من المدينة إلى وطنه صعيد مصر بهر الألباب وسحر العيون لعلمه الفيَّاض ولسمته وسلوكه الإيماني وتأدُّبه بأدب القرآن في كل حركاته وسكناته[1].

ثم شدَّ الإمام سَحنون شيخ المالكية في القيروان رحاله إلى ابن القاسم ليرث عنه السّمت المالكي ويحقّقَ معه كتاب المُدَوّنة التي رواها عن أسد بن الفرات. ولما رجع سحنون إلى القيروان أقبل عليه اثنان من أئمة المذهب المالكي في المغرب وهما: محمد بن عبدوس، ومحمد بن سحنون يُلازمانه في حلّه وترحاله مقتبسين من أدب مالك وسمته ثم ورث هذا السّمت الإمامان أبو العرب التميمي ومحمّد بن اللبّاد ومعهم ثالث وهو الإمام أبو الفضل الممسي، واستمرت هذه السلسلة النورانية إلى أن آل الأمر إلى شيخ المدرسة المالكية في المغرب ابن أبي زيد القيرواني الذي كان يُسمَّى بمالك الأصغر لتشبّهه بالإمام مالك في

1 - ينظر ترتيب المدارك للقاضي عياض (228/1).

سمته وأدبه رواية عملية علمية لا قولية شفوية[1].

ونجد أن الأثر التربوي الذي تشبع به الإمام سحنون من سمت الإمام مالك قد أثر تأثيرا مباشرا بتلامذته ونجد ذلك في أقربهم إليه ابنه الذي ورثه في العلم، وأخذ عنه تلك الآداب حتى ألف رسالة سماها بآداب المتعلمين وهي رسالة قيمة ونفيسة تعكس ذلك السلوك الذي وصل إليه من أبيه عن الإمام مالك[2].

المحور الثاني: الأسلاف المالكيون في ليبيا وجهودهم في تكوين هوية الصواب الفكري والإصلاح القلبي

يقول التيجاني في رحلته "إن القارئ في تاريخ هذا القطر تطالعه أسماء أعلام بنوا حياتهم على الزُهد في الدنيا، والانكباب على الآخرة، قال الإمام سحنون معبراً عن زهاد هذه البلاد: "رأيت رجالاً بطرابلس ما الفضيل بن عياض بأفضل منهم"[3].

أولا- المفهوم المتزن للزهد عند علماء الإصلاح من الأسلاف.

وهذا الزهد والورع لا شك بأنه قام على قاعدة العلم والمعرفة في إدراك المسار الصحيح بين الفقه والأدب، بحيث لا يُفهم منه ترك مسؤولية إعمار الأرض والقيام بواجب البناء والعمل، فمفهوم الزهد ينحرف سلوكه ـ عند من لم يتسلح بالفقه والعلم ـ إلى مفهوم الانزواء والتواكل والضعف وتعطيل حركة الحياة، وهنا تأتي دور المعرفة العلمية في تصويب هذا المفهوم الفكري تجاه الزهد من خلال ما عرفته وبينته السنة النبوية، فقد ورد عن أبي ذرﷺ عن النبي ﷺ قال: (الزَّهَادَةُ فِي الدُّنْيَا لَيْسَتْ بِتَحْرِيمِ الحَلَالِ وَلاَ إِضَاعَةِ الْمَالِ وَلَكِنَّ الزَّهَادَةَ فِي الدُّنْيَا أَنْ لاَ تَكُونَ بِمَا فِي يَدَيْكَ أَوْثَقَ مِمَّا فِي يَدِ اللهِ وَأَنْ تَكُونَ فِي ثَوَابِ الْمُصِيبَةِ إِذَا أَنْتَ أُصِبْتَ بِهَا أَرْغَبَ فِيهَا لَوْ أَنَّهَا أُبْقِيَتْ لَكَ) [4]، ففسر الزهد في الدنيا بأشياء كلها من أعمال القلوب لا من أعمال الجوارح، ولهذا لا يُفهم من هؤلاء الأعلام

1 - ينظر المصدر السابق (303/1).

2 - النسق التربوي عند ابن سحنون والقابسي ص 27 د فيصل صلاح الرشيدي.

3 - ينظر: رحلة التيجاني (أبومحمد عبد الله بن محمد) ص:251 - المطبعة الرسمية تونس د-ت

4 -سنن الترمذي، أبي عيسى الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم» باب ما جاء في الزهادة في الدنيا رقم (2340) المحقق: بشار عواد معروف، ن: دار الغرب الإسلامي – بيروت، سنة النشر: 1998 م كتاب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم» باب ما جاء في الزهادة في الدنيا.

الأسلاف بأن زهدهم كان على وجه تعطيل حركة حياتهم وأعمارهم ما أوجب عليهم فعله، وإنما صورة زهدهم مبنية على فقههم الصحيح بقوله تعالى﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾[1]..و كذلك علمهم بسبب نزولها، فقد ورد "أنه أراد أناس من أصحاب النبي ﷺ أن يرفُضُوا الدنيا، ويتركوا النساء، ويترهَّبوا، فقام رسول الله ﷺ فغَلَّظ فيهم المقالة، ثم قال: إنما هَلَك من كان قبلكم بالتشديد، شدَّدوا على أنفسهم فشدَّد الله عليهم، فأولئك بقايَاهم في الدِّيار والصوامع اعبدُوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وحجُّوا، واعتمروا، واستقيموا يَسْتَقِم لكم. قال: ونـزلت فيهم: "يا أيها الذين آمنوا لا تحرِّموا طيبات ما أحل الله لكم"[2].

ونري تمثل هذا الفهم الصحيح للزهد وتطبيقه بما يطابق تعاليم القران والسنة النبوية عند أشهر سلف أعلام ليبيا الشيخ عبد الله الشّعاب أحد مشايخ القرن الثالث الهجري، ولد في طرابلس وبها توفي سنة (243 هـ)، فقد كان كما وُصف متمسكًا بطريق السلف ومعروفًا بزهده وتصوفه، وبالإضافة إلى اعتنائه بأمور الدنيا، فلم يفهم من الزهد معنى الركون وعدم القيام بواجب الإعمار، فقد كان يمتهن حرفة التجارة فقد كان الزهد والورع عامرا به قلبه بينما جوارحه قائما بوظيفة الإعمار والحركة في الحياة، مقترنة بحال التوكل على الله في قلبه فقد عمر المسجد وبناه بنفسه إلي أن دُفن على بعد مسافة قصيرة جدًا منه، وحمل اسمه (مسجد سيدي الشعاب) مقابل ميناء طرابلس"[3].

وهذا الجهد المبذول يعود فضله الأول لمن نشر الفكر المالكي ومذهبه مُشبعا بمُثُل هذه القيم الصحيحة على مستوى أقطار المغرب العربي وهو الإمام الرائد علي بن زياد العبسي الطرابلسي (١٨٣ت هـ) الذي قال عنه عياض: "ثقة مأمون متعبد بارع في الفقه ممن يخشى الله عز وجل مع علوه في الفقه. سمع من مالك وسفيان الثوري والليث ابن

1 - سورة المائدة، الآيتان87، 88.

2 - الطبري جامع البيان في تأويل القرآن أبي جعفر الطبري (513/10) المحقق: أحمد محمد شاكر، ن: مؤسسة الرسالة، ط: الأولى، 1420هـ - 2000م.

3 - المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب أحمد بك النائب الأنصاري، ص 67، منشورات مكتبة الفرجاني - طرابلس الغرب - ليبيا.

سعد، وابن لهيعة وغيرهم"[1]، فقد وصفه بأنه متعبد بارع في الفقه مما يؤكد بأن هذا الزهد الذي بنوا به هؤلاء الأسلاف حياتهم في ليبيا قائما على المعرفة الفقهية المستمدة من منهج علي بن زياد العبسي بعيدا عن الانحراف الفكري والتشدد المفتقر إلى قواعد الفقه العلمي.

ثانيا: المجتمع الليبي وتأثره الإصلاحي بالهوية المدنية

وهذا يدل بأن المجتمع الليبي قد تأثر مُبكرا بهوية التوازن بين الصواب الفكري والإصلاح القلبي من خلال منهج الإمام مالك الذي بفضل وجهود تلميذه ابن زياد اكتسب الليبيون الهوية المدنية ذات الطابع والبيئة المعتدلة التي احتضنت أحوال النبي ﷺ وأخلاقه العظيمة في جانب وحي رسالته والتي سار الصحابة عليها ومن بعدهم من التابعين ثم حظي الإمام مالك بهذا الميراث النبوي باتفاق أهل زمانه بأنه اجتمع فيه علم وسمت من سبقه من خيار التابعين في المدينة، وقد شهد له بهذه الجمعية حديث النبيﷺ الذي قال فيه (يُوشِكُ أَنْ يَضْرِبَ النَّاسُ أَكْبَادَ الإِبِلِ يَطْلُبُونَ العِلْمَ فَلاَ يَجِدُونَ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْ عَالِمِ الْمَدِينَةِ) وَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عُيَيْنَةَ، أَنَّهُ قَالَ فِي هَذَا: سُئِلَ مَنْ عَالِمُ الْمَدِينَةِ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ[2]، وفي رواية (يخرج ناس من المشرق والمغرب في طلب العلم فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة أو عالم أهل المدينة)[3].

وبهذه الرواية يكون المجتمع الليبي قد حاز السبق الأول والفضل المتقدم على بقية بلاد المغرب الإسلامي بضرب أكباد الإبل إلى عالم المدينة من خلال ابن زياد الطرابلسي وهو من أبناء هذا الوطن، وبهذا تتحقق نبوءة النبي ﷺ، وهذه النقلة التي انتقل إليها علي بن زياد نشأت وتأسست على يديه مدرسة الإمام مالك على مستوى القطر الليبي خاصة وأقطار المغرب العربي عامة "فهو -كما قال عياض- أول من أدخل الموطأ ... إلى المغرب، وفسر لهم قول مالك ولم يكونوا يعرفونه"[4]، ولم يكتف المجتمع الليبي بإرسال سفير واحد إلى إمام دار الهجرة بل تتابع القاصدون لينهلوا من المَعين المدني والنبوي كمثل أبي سلمان محمد بن معاوية الحضرمي الطرابلسي فقد صحب مالكاً وسمع منه الموطأ.

---

1 - ترتيب المدارك للقاضي عياض (80/1).

2 - سنن الترمذي رقم (2680).

3 - المصدر السابق.

4 - ترتيب المدارك للقاضي عياض (80/1).

وهو مشهور ثقة[1]، وأيضا محمد بن ربيعة الحضرمي الطرابلسي كذلك شد الرحال إلى الإمام ماك واكتسب من علمه وأدبه[2].

لقد اتسم المجتمع الليبي بما كانت علية الهوية المدنية من طابع الاعتدال والتوازن وتحقيق منهج خيار الناس، وهذا التأثر والتحول كان الفضل فيه سفراء الوطن الليبي وأسلاف هذه البلاد الذين كان لهم السبق والفضل عن غيرهم في إذاعة وإشاعة تعاليم الإمام مالك ومنهجه التربوي والفقهي.

ونحن نجد أن حركة هؤلاء الأعلام لم تتوقف عند هذا الحد من العطاء العلمي والإصلاح القلبي بين مجتمعهم، بل تمثل ذلك من بعدهم في أبرز تلامذتهم كأمثال الإمام سحنون الذي هو من أبرز تلامذة علي بن زياد وهو من ينسب إليه جمع المدونة، فلما كان في طريق العودة إلى إفريقية (تونس) عرج على برقه سنة 191هـ، وزار تحديداً مدينة اجدابيا وهي إحدى المدن الليبية المهمة خصوصاً في العصور الوسطى الإسلامية والتي كان لها دور مهم أثناء الفتوحات الإسلامية للشمال الافريقى سنة 22هـ باعتبارها قاعدة عسكرية مهمة لجيوش الفتح المنطلقة أو المتراجعة بحسب الظروف. نزل بمدينة اجدابيا عام 191هـ ضيفاً على أهلها، راغبا أن يستفيدوا من علمه وما كتبه في مدونته من فقه الإمام مالك، حيث أخذ يُدرس أهلها العلم الشرعي ما يقرب من ثلاث سنوات في مسجد اجدابيا الكبير، وهذا يشير إلى مدى الازدهار العلمي والعمراني بمدينة اجدابيا، خلال العهد العباسي الأول وهي الفترة التي زارها فيها سحنون، وقد عرف عن الإمام سحنون أنه كان يطرد أهل الأهواء والبدع وأصحاب المذاهب المنحرفة من المساجد في أي مكان حل به[3].

1 - ترتيب المدارك (284/1).

2 - المصدر السابق (197/2).

3 - طبقات علماء إفريقية وتونس: أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم، ص: 184، تحقيق، على الشابي، ونعيم حسن البافي، الدار التونسية للنشر 1968.

المحور الثالث: الأسلاف ومنهجيتهم التطبيقية والتدريسية في إرشاد الفكر وإصلاح القلب:

لقد توارث الأسلاف منهجية هذا الفكر والإصلاح وترسخ ذلك في مؤسساتهم التعليمية وزواياهم وبقي موروثا عليما تتوارثه الأجيال، وللاطلاع على هذه المنهجية في التدريس وطرق تطبيقها فإني أكتفي في هذا المحور بذكر أنموذجين إصلاحيين وتعليميين لأشهر علماء ليبيا اللذين ملآ أطباق الأرض علماً ومعرفةً، وشرُفت بهما البلاد شرقاً وغرباً، وكان كل منهما مجددا في زمانه ومصححا عملي لمدرسة الصواب الفكري والإصلاح القلبي، فشاع منهجهما وبقي صيتهما حيّاً موروثاً، وعلمهما مدروساً منتفعا به في كل الأرجاء والأنحاء.

أولا: الفكر الإصلاحي للشيخ زروق ومنهجيته التعليمية:

وهو الشيخ أحمد زروق هو أبو الفضل شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن عيسى البُرنسي الفاسي، المعروف بزروق. ولد سنة 846هـ/1442م دفين مدينة مصراته، وذلك في اليوم الثامن عشر من شهر صفر سنة 899هـ، لقي ربه في خلوته وعمره أربعة وخمسون عاماً، تاركاً وراءه تراثاً ضخماً ما يزال شاهداً على عظمة هذا الرجل وعلو كعبه، وسعة فكره، صاحب المدرسة التربوية والتزكوية، إمام الفقه المالكي في عصره، ومجدد عهدها بليبيا بعد رحلته العلمية الطويلة التي ابتدأها من مسقط رأسه وموطن مولده في مدينة فاس حيث كانت موئل العلماء خاصة في العصر المريني ثم استقر به المقام بضواحي طرابلس الليبية، واختار منطقة مصراته مقراً له، باعتبارها كانت تشكل أقرب نقطة من المسجد الذي كان يلقي فيه دروسه على مريديه وأتباعه[1].

وقد تميز فكره التربوي بالتوازن في بعده المقاصدي بإصلاح النفس الإنسانية وأخذها إلى طريق الكمال الخلقي على نهج الكتاب والسنة، مصححا بذلك كل ما أدى به الانحراف والبعد عن منابع الشرع الكريم، فقد حافظ على الأصول الشرعية والآثار النبوية، وتجنب الانحرافات الفكرية والغلو السلوكي الذي شاب الفكر الصوفي وأدى به إلى الميل عن جادة

1 - ينظر: الشيخ أحمد زروق آراؤه الاصلاحية تاليف ادريس عزوزي ص:33 مطبعة فضالة المحمدية بفاس المغرب 1419 هـ ـ 1998م.

الحق، وقد جعل في جانب ذلك للفقه أهمية كبيرة في حياة التزكية الروحية ليحقق للطريق توازنه الصحيح.

وبذلك يقرر منهجيته ويدون معالم طريقه على هذا السلوك القويم في كتابه عدة المريد فيقول فيه: "أعلم أن الفقه والتصوف أخوان في الدلالة على أحكام الله سبحانه، إذ حقيقة التصوف ترجع لصدق التوجه إلى الله... ثم الفقه والأصول شرط فيه والمشروط لا يصح دون شرطه والشرط أن يكون بما يرضاه الحق... فلا تصوف إلا بفقه إذ لا تعلم أحكام الله الظاهرة إلا منه ولا فقه بلا تصوف، إذ لا حقيقة للعلم إلا بالعمل ولا عمل إلا بصدق وتوجه، ولا هما إلا بالإيمان إذ لا يصحان دونه فهو بمنـزلة الروح وهما بمنـزلة الجسد، لا ظهور له إلا فيهما ولا كمال لهما إلا به وهو مقام الإحسان"[1].

لقد استطاع الشيخ زروق أن يرسم للتصوف بهذه المنهجية المتزنة مع تحقيق للفقه دوره الفعال، مما انعكس ذلك في ساحة دعوته بهذا الأسلوب على أتباعه ومريديه في الساحة الليبية ونجد ذلك جليا ظاهراً في طابع المدارس والزوايا في منهجية تعليمها على نسق هذا التوازن الذي رسمه الشيخ أحمد زروق، ومن مظاهر هذه المنهجية التي تطبعت بها الزوايا الليبية في تحقيق التزكية الروحية الاعتناء بمدارسة العلوم النافعة، وقد قسمها الشيخ زروق إلى أربعة أقسام، وقال عنها هي: "العلوم المُعِينة على تنوير القلب وهي أربعة:

أولها: علم التوحيد والإيمان، وأقل ما يجزئ منه عقيدة مجردة عن البرهان، محررة في البيان، كترجمة العقيدة للإمام الغزالي وما جرى مجراها، وأوسطه ما في رسالته القدسية، وأعلاه معرفة أصول المذهب الحق وقواعده، وأضر ما فيه فرض الشبه والاشتغال بأنواع التأويل من غير احتجاج لذلك، لأنه مشتت للقلب، مشوش للذهن، موهن للإيمان، مضعف لحرمة الربوبية من القلب، إلا في حق كامل منتصر للشريعة بما أوتيه من العلم والبيان، فيقوم بذلك دفعا لأهل الاعتراض، ومداواة لذوي القلوب المرضى، لا لخلي سليم غير محتاج إليه، ولا قادر على القيام عليه، والله أعلم"[2].

فارتسم بما قرره الشيخ زروق للزوايا الليبية قديما في تعليمها الشرعي بمنهج دقيق في

---

1 - عدة المريد الصادق المؤلف: شهاب الدين أبو العباس أحمد الزروق (48/1)، المحقق: الصادق ابن عبد الرحمن الغرياني الناشر: دار ابن حزم الطبعة: الأولى، 1427 هـ - 2006 م

2 - عدة المريد الصادق (ص:181).

هذا الجانب من العلوم الشرعية ،فكان اول ما يلتزم به الطالب حفظ المتون التي ترشده الى فهم مسائل التوحيد والإيمان الواجب معرفته بعيدا لما أشار اليه الشيخ زروق فيما هو (مشتت للقلب، مشوش للذهن، موهن للإيمان، مضعف لحرمة الربوبية من القلب) ولذلك لكثرة ما في هذا النوع من علم الكلام من الشبه والأغاليط الفكرية التي تشوش ذهن الطالب في بداياته العلمية وبالتالي يدرس من المتون ما يحفظ عنه إيمانه وقلبه من الشتات بمسائل مقررة ومحررة ومن اهمها متن أم البراهين للإمام العلامة السنوسي وكذلك منظومة المرزوقي التي مسماها عقيدة العوام، وأيضا مقدمة ابن عاشر وغيرها.

الثاني: علم الفقه والأركان، وأقل ما يكفي فيه معرفة عقود الأبواب وشروطها، وأوسطه ما يتسع به النظر في الأحكام، وأعلاه ما تثبت به الحجة والمحجة من العلم، بالتوجيه والتنظير والدليل والتعليل، وأنواع التقسيم إلى غير ذلك، وأضر ما فيه التشدق في المجالس، وتشتيت، لذهن بالخلافيات، واتساع التأويل في الحركات، ورؤية النفس بالتحصيل، مع مصاولة الأقران ومكائد الإخوان، والاشتغال بوجوه الهذيان، فتعلم مستمعا ساكتا، مقتصرا على محل الفائدة، متبرئا من الدعوى ورؤية النفس، تسلم من آفاته، وبالله التوفيق"[1].

ومن الملاحظ في هذا الجانب أيضا يرسم بعداً مقاصدياً في ترسيخ المصلحة الفعلية من تدريس علوم الفقه والاجتهاد ومُنَبّهاً عن الأضرار النفسية التي تلحق بمن لا يصحح النية الصادقة في عدم إصابة الهدف المرجو من تعلم هذا العلم ،وعلى هذا المنوال نجد أن المدارس والزوايا في ليبيا تطبعت بهذا الطابع التوجيهي الذي يحفظ للفقه توازنه ومقاصده، فقد نشأت على تحفيظ الطلاب المختصرات التي أولا يكتفي بها الطالب في معرفة ما يتعين عليه من الأمور العملية ثم يتدرج ما يتسع به نظره في الأحكام، وما تثبت به حجته من أدلة هذه المسائل، فأول ما كان يقرأ المتون المختصرة وشروحاتها الميسرة كنظم ابن عاشر في فقه العبادات، ثم متن الرسالة لابن أبي يزيد القيرواني، وأيضا متن خليل ومختصره في الفقه، ثم ينتقل بالطالب إلى الشروحات الموسعة لنقولات العلماء واختلاف مسالك اجتهاداتهم.

"الثالث: علم التصوف والأحوال، وفائدته تحقيق العبودية، والنظر في وجه تعظيم الربوبية، بإقامة الحقوق، والإعراض بالحق عن كل مخلوق، وأقل ما يجزئ فيه (بداية

---

1 - عدة المريد الصادق (ص:182).

الهداية) للغزالي، وأوسطه منهاجه أو بعض كتب المحاسبي، وأعلاه كتب ابن عطاء الله ومن نحا نحوه..."[1].

ثانيا: الفكر الإصلاحي للشيخ الأسمر وتطبيقاته التدريسية:

وهو عبد السلام الأسمر بن سليم الفيتوري الإدريسي الحسني. يُعدّ من أهم علماء ودعاة الإسلام في القرن العاشر الهجري، فهو من فقهاء المالكية وعالم في عقيدة أهل السنة والجماعة، ومن أبرز مشايخ التربية والسلوك على منهج أئمة التصوف. وأحد أهم ركائز الحركة العلمية والدعوية في المغرب الإسلامي. تضمّن منهجه الدعوي والإصلاحي الاهتمام بمختلف طبقات المجتمع ولم يحصر في الطبقة المتعلمة، الأمر الذي جعله قائداً روحياً وبمثابة حجر زاوية لرسوخ الإسلام في المغرب الإسلامي، وبعد مضي خمسة قرون على وفاته فإن أثره ما يزال واضحاً ومؤثراً على الصعيدين العلمي والاجتماعي[2].

وقد أسس مدرسته التي هي من أكبر الزوايا التي عمرت بها البلاد ليبيا وقد تأثر في أسلوبه التعليمي بها بمنهج شيخه أحمد زروق الذي هو بدوره أشار إلي تلميذه مُستبشراً بما رآه فيه من النبوغ بعلو قدمه ونجاحه في مهمته الدعوية، متبنيا في مسيرته ما وضعه الشيخ زروق له من منهج متوازن، فقال :"... سيكون لهذا الولد ـ عبد السلام الأسمر ـ شأنٌ عظيم بطرابلس إلى أن يفوق أهل عصره"[3]، وقد صدّق الله فراسته في تلميذه حيث أسس زاويته في منهجها التعليمي وفق ما خططه الشيخ زروق من منهجية التقسيم في العلوم النافعة، فتبع الشيخ الأسمر ذلك في تعليمه لتلاميذه بمنهج دقيق يوضح مدى تفانيه في أدائه لرسالة الدعوة على هذا النهج المعتدل، فقسم اليوم الدراسي لتلامذته على التقسيم الرباعي:

فجعل في المحاضرة الأولى: تدريس علوم التوحيد من الضحى إلى صلاة الظهر.

وأما المحاضرة الثانية: ففي علوم الفقه من بعد صلاة الظهر إلى العصر، تنقسم هذه المحاضرة إلى جزئين، الجزء الأول يخصص لدراسة رسالة ابن أبي زيد القيرواني، والجزء الثاني لتدريس مختصر خليل، ومختصر خليل هو من أهم كتب المالكية ومن أشهر من

1 - المصدر نفسه.

2 - القطب الأنور عبد السلام الأسمر / الشيخ الأستاذ أحمد القطعاني.

3 - تنقيح روضة الأزهار للشيخ كريم الدين البرموني (ص :120) تهذيب محمد مخلوف مكتبة زهران القاهرة.

شرحه الإمام الحطاب تلميذ الشيخ عبد السلام الأسمر.

وأما المحاضرة الثالثة: ففي علوم التربية والسلوك، وتبتدئ من بعد صلاة العصر إلى المغرب، يتناول خلالها كتاب الحكم العطائية لابن عطاء الله الاسكندري.

وفي المحاضرة الرابعة: يتناول علوم النحو، والمعقول، وتبتدئ بعد صلاة المغرب إلى وسط وقت العشاء، تنقسم هذه المحاضرة إلى جزئين، الجزء الأول يخصص لدراسة النحو، والجزء الثاني لدراسة المعقول من علوم المنطق وغيرها[1].

وعلوم المحاضرة الرابعة هي ما أشار إليها الشيخ زروق في تقسيمه مبينا مهمة تعلم هذه العلوم فقال: "الرابع: علم الإيضاح والدلالة والبيان والتحقيق، كالعربية، لغة ونحواً، وما يجري مجراها، والمراد بها ما يقع به الفهم والتفهيم على أتم الوجوم بأقرب ما تحصل به، فهي كالملح إن كثر ضرّ، وإن قل فسد الطعام بنقص لذته، بل عدمها، والله أعلم[2].

وقد سماها الشيخ زروق أصول هذه العلوم بالعلوم المنورة فقال: " وإذا علمت العلوم المنورة فقد بانت لك العلوم المكدرة"[3]، فبهذه المنهجية التدريسية الرائعة في تطبيقها حققت في الهوية الليبية الإصلاح والاعتدال بين الصواب الفكري والإصلاح القلبي

المحور الرابع: المجتمع الليبي وتأثره بمنهجية الصواب الفكري والإصلاح القلبي

إن هذه العلوم المنورة -كما سماها الشيخ زروق- لما اتسع نطاق تعليمها وتطبيقها بهذه المنهجية الرائعة في المدارس العلمية والزوايا والروابط التعليمية تركت الأثر العلمي والتربوي في سلوك المجتمع الليبي عبر مراحله التاريخية، ويرجع هذه التأثر الواسع بسبب كثرة انتشارها في جميع الأرجاء، ومن خلال ذلك نلتمس تاريخيا هذا التكوين في هوية المجتمع الليبي، من عدة نواحي:

أولا: عبر النسيج العمراني القديم: فنجد هذه الزوايا والروابط والمساجد غالبا ما تتوسط في بنائها مراكز هذه المدن مما تمثل النواة الأولى في تخطيطها وتأسيسها، والتي تكون فيها شوارع المدن الرئيسية صرة الالتقاء بها فتتصل بساحاتها؛ لتصبح هذه الشوارع بمثابة شريان الحياة بين عمران المدينة وهذه الروابط والمساجد أو المؤسسات العلمية المتمركزة فيها،

1 - ينظر: تنقيح روضة الأزهار ص:207.

2 - عدة المريد الصادق ص:183.

3 - المصدر نفسه.

كالقلب النابض بروح الحياة لهذه المدن، فهي تضخ لكل البيوت والمرافق المحيطة بها بنبضات الإيمان وروح العلم وصلاح القلب والفكر[1].

ثانيا: عبر مظاهر حياة التدين والالتزام بين طبقات الخواص: من رواد هذه المراكز الذين تشبعوا بروح الفكر الإصلاحي والفقهي، وحياة القلب النابض بنور الإيمان والتزكية من هذه المساجد والروابط، فكانوا رجال إصلاح وإرشاد لمجتمعاتهم، يقول د. إحسان عباس: "...اتخاذ هذه المساجد والرباطات في المجتمع الليبي كان مبكرا في تاريخها مما عكس ذلك على المجتمع الليبي بحبهم للتدين والعبادة والزهد والإيمان بمبادئ الدين وقيمه"[2].

ونجد ذلك ما يشهد له قول الإمام سحنون بن سعيد بعد عودته من طرابلس عندما سئل عن أهلها فقال: "رأيت بطرابلس رجالاً ما الفضيل بن عياض أفضل منهم"[3]. والفضيل هذا كان من أشهر العباد والزهاد في التاريخ الإسلامي حتى لقب بعابد الحرمين، وقال عنه عبد الله بن المبارك: "ما بقي على ظهر الأرض عندي أفضل من الفضيل"[4]. وهذا التميز في مظهر حياة العلم والمعرفة مع الزهد والاستقامة لدى الأعلام في ليبيا لم يكن حبيس العصور المبكرة التي عاشها الإمام سحنون ومن قبله بل نجده طابعا سائدا بين علمائها في كل مراحل التاريخ فهذا الرحالة التجاني كان قد زار ليبيا سنة 708 هـ / 1308م وأشار في رحلته إلى كثير من فضلاء طرابلس وصلحائها الذين عرفوا بالبركة وإجابة الدعوة، والزهد في الدنيا، من أمثال: أبي عثمان الحساني، وسمدونة، والشعاب، وأبو نزار خطاب البرقي، وأبي محمد عبد الوهاب القيسي، وغيرهم. ويقول عن العالم والفقيه ابن الأجدابي: كفي بهذا الرجل العظيم القدر فخراً لهذا القطر"[5]، ويعني بهذا القطر طرابلس وليبيا بأكملها، فقد كان من العلماء الكبار الذي جمع بين صواب الفكر وصلاح القلب.

1 - ينظر مدونة د أنتصار محمد ميلاد الزنان (السمات العامة للنسيج العمراني للمدن الليبية القديمة) https://portal.arid.my/ar-LY/Posts/Details

2 - ينظر تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري دار ليبيا للنشر والتوزيع ط1 1967 ص243.

3 - نزهة الأنظار للشيخ حسين بن محمد الورثلاني (182/1)، ن - دار الكتب العلمية، بيروت لبنان 1971.

4 - تاريخ الإسلام الذهبي ج (12 / 335)، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمرى دار الكتاب العربي، بيروت ط: الأولى: ١٤٠٧ - ١٩٨٧م.

5 - رحلة التيجاني ص273-274.

ثالثا: عبر مظاهر الحياة الاجتماعية بين عامة الناس، فلم يقتصر هذا التأثر الإيجابي والإشباع الفكري والوجداني عند طبقة خواص الناس من العلماء وطلاب العلم بل نجده قد شاع سلوكا ومعاملة في عامة المجتمع، فشواهد المؤرخين تُدون ما كان عليه المجتمع الليبي من رُقيّ في التعامل، وسُمُوٍّ في الأخلاق وإكرامهم وتعظيمهم للمارين والنازلين بهم من الأضياف، وبالأخص العلماء منهم، فبهذا التشبع الروحي والفكري المبكر اشتهرت بلادنا (ليبيا) عند الرحالة والمارين بها بأنها بلد العلم والمعرفة والكرم والجود، وبلد الصالحين والعلماء ، ولذلك حرص الرحالة والجغرافيون والحجاج المغاربة على التوقف بها ، ولقاء علمائها وزيارة أضرحة وقبور الصالحين من أهلها، وزيارة مساجدها. يقول المؤرخ أبو عبيد البكري عن أهل طرابلس (إن أهل طرابلس من أحسن خلق الله معاشرة ، وأجودهم معاملة ، وأبرهم بغريب)[1]، ونرى أن البكري أرخ هذه التزكية في أهل طرابلس آخر القرن الخامس وبداية القرن السادس. وكما نجد تزكية لمؤرخ آخر في الفترة التي تليها حوالي بثلاثة قرون، مما يدل على عمق تغلغل هذه الصفات الحميدة في أجيال المجتمع الليبي، وأن هذه الزوايا والروابط قائمة بدورها التعليمي والإصلاحي في المجتمع على أحسن وجه، يقول الرحالة الأندلسي أبو الحسن القلصادي عن طرابلس وكان قد زارها سنة 850 هـ / 1446م: "وبلغنا طرابلس فنزلنا وتلاقينا مع بعض الأصدقاء وحبونا بالبر والإكرام"[2].

وانظر إلى قول الرحالة العياشي الذي زارها سنة1059ه/ 1649 م حيث يذكر: "جمع لأهلها من زكاء الأوصاف وجميل الأنصاف، وسماحة على المعتاد زائدة، وعلى المتعافين بأنواع المبرة عائدة، لا تكاد تسمع من واحد من أهلها لغواً إلا سلاماً ولو لمن استحق ملاماً، سيما مع الحجاج الواردين، ومن انتسب إلى الخير من الفقراء العابدين، فإنهم يبالغون في إكرامهم، ولا يألون جهداً في أفضالهم عليهم وأنعامهم"[3].

وما يلفت الانتباه من قول العياشي ذكره في أهل طرابلس"... لا تكاد تسمع منهم كلاماً قبيحاً أبداً، حتى لمن استحق العقاب والتوبيخ، وهذا الوصف الرائع ينمي على عظيم

---

1 - المسالك والممالك للبكري (652/2) ن: دار الغرب الإسلامي عام النشر: 1992م.

2 - رحلة القصادي، (ص: 324). دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع.

3 - الرحلة العياشية (1/ 523)، تحقيق وتقديم سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي، أبو ظبي، 2006م.

الأخلاق التي كانوا يتسمون بها في سلوكهم ومعاملاتهم وإن دل على شي فإنما يدل على مدى تأثرهم بتعاليم الأخلاق الروحية والآداب الرفيعة التي منشأها فيهم من تلك المدارس والزوايا والروابط التي استوعبت في تطبيقات علومها جل أفراد المجتمع دون بعضهم من المتعلمين مما يعكس أهمية ما قامت به هذه الروابط من دور فعال في تربية المجتمع على أحسن مثال، ونجد -أيضاً- الرحالة الناصري في مرحلة زمنية أحدث من سابقتها التي زارها سنة 1211هـ/ 1796م: له شهادة يفتخر بها لأهل البلاد فيقول: "والحاصل مدح البلد وأهلها وحسن أخلاقهم وجودهم سارت به الركبان وعلم علمائها ملأ الخافقين، وفضلهم من شمس الضحى أظهر وأوضح"[1].

وفي عام سنة 1247هـ/1831م زار الرحالة الموريتاني ابن طوير الجنة تكلم عن كرم وجود أهل ليبيا بعد مروره بدرنة وبنغازي وطرابلس فقال" وأما ما فعل معنا أهل درنة وأهل بنغازي وأهل طرابلس من أنواع الإكرام وأنواع الإنعام فلا تحصيه الدفاتر، وتقصر عن عده الأقلام والمحابر"[2].

فهذا عرض لشهادات الرحالة والمؤرخين مختلفي الأشخاص ومتباعني الأزمنة، كل واحد منهم يزكي طباع ومعاملات الناس في مرحلته التاريخية فنجد بأن المجتمع الليبي من مراحله التاريخية الأولى حينما استقرت تعاليم الإسلام السمحاء والمعتدلة ورسوخ الذهب المالكي بشقيه الفقهي والأخلاقي بقيت تلك هي الهوية السائدة في المجتمع الليبي إلى العصر القريب وان العلماء الربانيين لم ينقطع سعيهم في تطبيق العلوم المنورة كلما ذهبت طبقة من هؤلاء العلماء استخلفهم من بعدهم في إكمال المسيرة العلمية والتربوية مما عكس هذا الاشباع الفكري والخلقي في المجتمع الليبي، وأصبح الهوية السائدة فيه والذي بدور المؤرخين والرحالة عاينوا ذلك ودونوه فكان أفخر شهادة يعتز بها الليبيون في هويتهم التي شيدها فيهم هؤلاء الأسلاف.

الخاتمة:

من أهم النتائج التي نتلخص حول محتوى هذا البحث هي الآتي:

1. إن التوأمة بين صواب الفكر وصلاح القلب بدأ وجوده وأهميته في المذهب من حياة الإمام

---

1 - الرحلة الناصرية ص: 78، حققها وقدم لها عبد الحفيظ ملوكي، دار السويدي، أبو ظبي، 2011م.

2 - رحلة المنى والمنة ص:180، تحقيق حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، 2013م.

مالك عند مرحلته التعليمية الأولى، وهي الهوية الحقيقية للدين التي تربى عليها مجتمع الصحابة ومن بعدهم من التابعين في المدينة المنورة.

2. بهذا التوازن بين السبيلين لم يحصل تطرف في الفكر، أو انحراف في السلوك كما وُجد في بقيّة المجتمعات الأخرى من فرق عديدة ظهرت في غير المدينة المنورة، ضلت في فكرها وانحرفت في سلوكها.
3. إن التفريق بين أهمية صواب الفكر القائم على صلاح القلب، وبين أدب النفوس وتطهيرها من الرعونات يمثل خطورة بين الأفراد والمجتمعات المسلمة
4. إن المجتمع الليبي قد تأثر مُبكرا بهوية هذا التوازن بين الصواب الفكري والإصلاح القلبي من خلال منهج الإمام مالك الذي بفضل وجهود تلاميذه اكتسب الليبيون الهوية المدنية ذات الطابع والبيئة المعتدلة التي احتضنت أحوال النبي ﷺ وأخلاقه العظيمة.
5. إن المجتمع الليبي قد حاز السبق الأول والفضل المتقدم على بقية بلاد المغرب الإسلامي وذلك بأن كان أول من ضرب أكباد الإبل إلى عالم المدينة أحد ابناء هذا الوطن وهو ابن زياد الطرابلسي.
6. بتحقيق هوية هذا الاعتدال لم يسجل التاريخ الليبي في فترة حياة هذه المنهجية العلمية أي نتاج متطرف أو فكر منحرف يحمل صُوراً فكرية مشوهة أو مشبوهة، وبهذين الطريقين بوجودهما معا -بين تزكية النفوس، والجانب الفقهي- يحققان المصلحة الكبرى في إيجاد ما تتهيأ به النفوس بما يُصلحها، ويصقل القلوب بما يطهرها.
7. بهذا التشبع الروحي والفكري المبكر التي اشتهرت بلادنا (ليبيا) عبر المنهجية الرائعة التي في المدارس العلمية والزوايا والروابط التعليمية تركت الأثر العلمي والتربوي في سلوك المجتمع الليبي عبر مراحله التاريخية مما خلف عند الرحالة والمارين بها انطباعا في مدوناتهم التاريخية بأنها بلد العلم والمعرفة والكرم والجود، وبلد الصالحين والعلماء فكان ذلك منهم أنخر شهادة يعتز بها الليبيون في هويتهم التي شيدها فيهم هؤلاء الأسلاف.

التوصيات:

لتجنب الفوضى الفكرية والانحرافات السلوكية في دعوى الالتزام والتدين في المجتمع الليبي يجب علاجها بإحياء مُدَارسة منهجية سلف ورموز وعلماء هذه البلاد الذين طالما لمعت أسماؤهم لدى العام والخاص، وترميم ما شيدوه من أسسٍ وأبنيةٍ وقبابٍ لربط وزوايا احتوت على أجل ما تركوه من تراث علمي منتفع به عَمَرَت به البلاد، وصلح به العباد في ليبيا.

فهرس المصادر والمراجع:

1. البحر المديد لابن عجيبة، اتحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة ط: 1419هـ.
2. تاريخ الإسلام الذهبي، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمرى دار الكتاب العربي، بيروت ط: الأولى:1407ه/1987م.
3. تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري دار ليبيا للنشر والتوزيع ط1 1967 .
4. ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض بن موسى اليحصبي، مطبعة فضالة - المحمدية، المغرب، ط: الأولى.
5. تنقيح روضة الأزهار للشيخ كريم الدين البرموني، تهذيب محمد مخلوف مكتبة زهران القاهرة.
6. ديوان الإمام الشافعي، محمد بن إدريس، تحقيق محمد إبراهيم سليم، مكتبة ابن سينا – القاهرة مصر.
7. رحلة التيجاني، أبومحمد عبد الله بن محمد، المطبعة الرسمية تونس د-ت
8. الرحلة العياشية، تحقيق، سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي، أبو ظبي، 2006م.
9. رحلة القصادي، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع.
10. رحلة المنى والمنة، تحقيق حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، 2013م.

11.الرحلة الناصرية، تحقيقها، عبد الحفيظ ملوكي، دار السويدي، أبو ظبي، 2011م.
12.الرسالة القشيرية لعبد الكريم بن هوازن القشيري تحقيق: الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف ن: دار المعارف، القاهرة مصر.
13.سنن أبي داود رقم (4765) تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر.
14.سنن الترمذي، أبي عيسى الترمذي، كتاب: الزهد، باب: ما جاء في الزهادة في الدنيا رقم (2340) المحقق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م.
15.السنن الكبى للنسائي رقم (11156)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الأولى، 1421ه/ 2001م
16.شرح ملا علي قاري على آداب المريدين للسهروردي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان.
17.الشيخ أحمد زروق آراؤه الاصلاحية تاليف ادريس عزوزي، مطبعة فضالة المحمدية بفاس المغرب 1419هـ 1998م.
18.صحيح البخاري رقم (3610)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط: الأولى 1422هـ.
19.الطبري جامع البيان في تأويل القرآن أبي جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ن: مؤسسة الرسالة، ط: الأولى، 1420هـ - 2000م.
20.طبقات علماء إفريقية وتونس: أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم، تحقيق، على الشابي، ونعيم حسن البافي، الدار التونسية للنشر 1968.
21.عدة المريد الصادق المؤلف: شهاب الدين أبو العباس أحمد الزروق، تحقيق: الصادق ابن عبد الرحمن الغرياني، دار ابن حزم الطبعة: الأولى، 1427ه/2006م.
22.القطب الأنور عبد السلام الأسمر، الشيخ الأستاذ أحمد القطعاني.
23.مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للإمام محمد التبريزي، دار الفكر، بيروت – لبنان ط: الأولى، 1422هـ - 2002م.
24.المسالك والممالك للبكري، دار الغرب الإسلامي عام النشر: 1992م.
25.المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب أحمد بك النائب الأنصاري، منشورات مكتبة الفرجاني - طرابلس الغرب - ليبيا.
26.نزهة الأنظار للشيخ حسين بن محمد الورثلاني، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1971.